ابن قيس الرقيـات*

اسمه ولقبه ونسبه ومولده :

هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك ، أحد بني عامر بن لؤي وقد لقب بالرقيات إما لعدة زوجات أو جدات أو حبيبات له كانت أسماؤهن كلهن رقية ، وقد رجح كثير من الرواة والمترجمين له أنه لقب بذلك لتشببه في أكثر من واحدة اسمها رقية وهذا ما ذهب إليه ابن قتيبة وأبو الفرج الأصفهاني .

وينتهي نسبه إلى قريش من جهة أبيه ، وهو أيضا قرشي من جهة أمه، ولكنه لم يكن من عشيرة ثرية ذات شأن فلقد كان من قريش الظواهر الذين كانوا يعيشون خارج مكة ولكنها كانت عشيرة معروفة بالبأس والشجاعة والقوة . وأما أمه فهي قتيلة بنت وهب بن عبد الله، وينتهي نسبها إلي عبد مناة بن كنانة ، وقد ولد بمكة المكرمة وهذا ما يتفق عليه الرواة لكنهم يختلفون كثيرا حول سنة مولده ، وإن كنا نرجح أنه ولد في أوائل خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (في العقد الثالث من القرن الأول الهجري) علي حسب رواية الأصفهاني.

---

* انظر في هذا الموضوع :
١- الأغاني / جـ ٤ / صـ ١٥٤ .
٢- طبقات فحول الشعراء / جـ٢ ، صـ ٦٤٨ .
٣- الموشح المرزباني / صـ ٢٤١ تحقيق / علي محمد البجاوي / ط نهضة مصر / بدون
٤- الشعر والغناء في المدينة ومكة / د. شوقي ضيف / صـ ٢٧٥ .
٥- العصر الاسلامي / د. شوقي ضيف / صـ ٢٤٣.
٦- ابن قيس الرقيات . حياته وشعره / د. إبراهيم عبد الرحمن / ط دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥ .
٧- الشعر والشعراء ابن قتيبة / جـ ١ ، صـ ٥٣٩ .
٨- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات / تحقيق د. محمد يوسف نجم / ط دار صادر بيروت – بدون .

مذهبه السياسي :

يعتقد البعض أن الشاعر كان زبيري الهوى ، ينتصر للزيبريين ويدافع عنهم ، ويستدلون علي ذلك بمدائحه التي توجه بها إلى مصعب بن الزبير. والحق أن الشاعر لم يكن كذلك فشعره يخلو من الدعوة إلى الزبيريين والدفاع عن رأيهم وقضيتهم إذ لم تشغله قضية الحزب الزبيري أكثر من انشغاله بقريش ووحدتها ، ولذلك نرى في مدائحه لمصعب حزنه علي قريش ، وما أصابها من ضعف وتمزق وضياع كما يشهد علي ذلك قوله :

حبذا العيش حين قومي جميع ... لم تفرق أمورها الأهواء

قبل أن تطمع القبائل في ملـ ... ـك قريش وتشمت الأعداء

أيها المشتهي فناء قريش ... بيد الله عمرُها والفناء

إن تودع من البلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحي بقاء [1]

لقد كان الشاعر دائما منتصرا لقريش فالقضية عنده ليست قضية خاصة أو قضية حزب معين إنما هي قضية عامة وهي حبه لقريش وأمله في أن تظل باقية متحدة شامخة ، وهذا ما يفسر لنا كرهه لبني أمية حينما كان متصلا بالزبيريين لأنه كان يرى أن الأمويين قد مزقوا وحدة قريش بما أثاروا من حروب وما أحدثوا من منازعات .

لقد كان السبب في مديحه الزبيريين هو مبدأ الدعوة عندهم – إلى أن تكون الخلافة في قريش ومن ثم نراه باكيا علي ملك قريش إذ يقول :

عين فابكي علي قريش وهل يرى ... جع ما فات – إن بكيت – البكاء

معشر حتفهم سيوف بني العلـ ... ـات يخشون أن يضيع اللواء[2]

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات / صـ ٨٨ / ٨٩ .

(٢) الديوان / صـ ٩٤ .

فالشاعر إذن قرشي الهوى والمذهب ، يرى أن قريشا أحق بالسيادة والرياسة بما تملك من ميراث ديني وتاريخي وقبلي فقريش هي عمود الخلافة ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطا لا يرتفع بعده (١) ومن ثم جذبته دعوة الزبيريين إلى تلك القضية جذبا ، ولذلك كان مصعبي الهوى ، فلقد أحب مصعبا وأعجب بشجاعته ، ورأى فيه فتى قرشيا ينتصر لقومه – قريش – ويثأر لها من أعدائها ومن كل من يحاول أن يزيل ملكها أو يزلزل كيانها . ومما يدلنا علي قرشيته تحوله إلى مديح الأمويين بعد اندثار الحزب الزبيري لأنه رأى أن السلطة قد استقرت فيهم وأن سلطان قريش معهم ، فهم أحد بيوت قريش .

والحق أن ابن قيس الرقيات لم يكن شاعرا للزبيريين ولا شاعرا للأمويين علي الرغم من اتصاله بهؤلاء وهؤلاء وإنما كان شاعرا لقريش يعشقها ويدافع عنها ويدعو إلى سيادتها ويتمنى لها الظهور دائما كما يتمنى لها القوة والوحدة ، لقد كان – في الحق – أوسع أفقا وأبعد نظرا من تلك الأحزاب التي قامت في عصره وتصارعت في زمنه .

شعـره :

نظم ابن قيس الرقيات في موضوعات عديده وأغراض كثيرة من الشعر أهمها ما يأتي :

١- الغزل :

لابن قيس الرقيات قصائد ومقطوعات في الغزل كثيرة ، وقد قسم النقاد غزله إلي مرحلتين أو طورين هما[٢] :

أ- الطورالأول :

---

(١) العصر الإسلامي / د. شوقي ضيف / صـ ٢٩٦ .

(٢) انظر ابن قيس الرقيات / حياته وشعره ، صـ ١٤٧ .

هو ذلك النوع من الغزل الذي نظمه أثناء وجوده بمكة والمدينة قبل اتصاله بالسياسة .

ب- الطورالثاني :

هو ما نظمه من غزل في مقدمات قصائده بعد اتصاله بالسياسة.

ويلاحظ علي النوع الأول كثرة المقطوعات الخالصة في الغزل والتي لم تمتزج بمديح أو هجاء وكان هذا نتيجة اتصاله بحياة الترف والغناء والمغنيين والمغنيات في مكة والمدينة وما تطلبته موجة الغناء من مقطوعات قصيرة يسهل تلحينها . ويلاحظ أيضا أن كثيرا من هذه المقطوعات كان مطبوعا " بطوابع الغناء التي عاصرته "[1] كما أنها "تمتاز " بحلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات"[2] من أنغام وترنيمات كما تمتاز بالنقاء والصفاء وعذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان [3]

كما يلاحظ أيضا أن كثيرا من هذه المقطوعات كان فيمن تسمي رقية وسلمة ، والحق أن ما نظمه في رقية من شعر قصة يصور قصة غرام وعشق وهيام شديد كما يصور ما كان يطرأ علي هذا الغرام من تغيرات وعقبات .

والحقيقة أنه قد أخلص أيما إخلاص في حبه رقية ابنه عمه عبد الواحد ومحض لها العشق وملأ باسمها أرجاء الحجاز في شعر رقيق عذب أخاذ مملوء بصدق العاطفة الجياشة دال على وفاء شديد لها وذلك كما نرى في قوله :

رقيـــــة تيمـت قلبـــــي فواكبـــدي مـــن الحـــب

وقالـــــــوا داؤه طـــــب ألا بـــل حبـــها طبـــــي

---

[1] العصر الاسلامي / صـ ٣٠١ .

[2] العصر الإسلامي / صـ ٣٠١ .

[3] العصر الإسلامي / صـ ٣٠١ .

نهانـــي إخوتـــــي عنـــــــها وما للقلـــــب مـــــن ذنـــــب[1] ذنـــــب[1]

ويلاحظ على شعره في هذا الجانب أيضا تطور في المعنى فلقد عبر فيه عن دلال المرأة المنعمة المترفة وعبر عن نفسيتها وما أصابت من التحضر والرقي وذلك كما يظهر في قوله :

حبـــــذا الـــــدلال والغنـــج والتـــي فـــي طرفـــــها دعـــج

التـــي إن حدثـــت كذبـــــت والتـــــي فـــي وصلـــها خلـــج

تلك إن جـــــادت بنـــــائلها فابـــــن قيـــس قلبـــه ثلـــــــج[2] ثلـــــــج[2]

ومما يلاحظ أيضا على هذا النوع تطور في الأسلوب والوزن فاللغة عنده سهلة بسيطة والألفاظ قريبة مألوفة ، بعيدة عن الغرابة والتقعر والالتواء كما أنه استخدم الأوزان الخفيفة كثيرا كما ذكرنا من قبل – وهذه الأوزان تلائم حاجة المغنين والمغنيات ومجتمع اللهو ومجامع السمر والطرب والعبث ، وأخيرا يلاحظ أن كثيرا من القصائد والمقطعات قد استقل بموضوع الغزل .

<u>وأما النوع الثاني</u> : فهو الذي نظمه بعد اتصاله بالسياسة وفيه قل الغزل الخالص فلقد امتزج الغزل عنده بالسياسة .

وهنا نلاحظ عودة الشاعر إلى النظام التقليدي إذ صار الغزل جزءا من القصيدة أو قل مقدمة لها[3] بعد أن كانت القصيدة عنده خالصة للغزل .

والحق أن ابن قيس الرقيات قد استطاع أن يتخذ الغزل هنا في هذا النوع – أداة لشعره السياسي ووسيلة للوصول إلى إعلان آرائه في السياسة والحكم .

---

(1) الديوان / صـ ١٦٩ .
(2) الديوان / صـ ١٦٣ .
(3) انظر ابن قيس الرقيات ، صـ ١٥٥ .

ويلاحظ أن هذا النوع عنده قد تميز بحرارة العاطفة وصدق الإحساس ودقة المشاعر والانفعال والانبهار بالجمال كما يلاحظ أنه قد بثه شيئا من نفثات الألم والحزن وذلك كما نرى في قوله :

عادَ لَهُ من كثيـرةَ الطـــربُ فعينـــه بالدموع تنسكب
والله ما إنْ صبتْ إلـــيَّ ولا يعلم بيني وبينها ســبب
إلا الذي أورثت كثيرة في الــ قلب وللحب سَوْرة عجب [1]

وكما نرى في قوله :

ظعـنت لتحزننـا كثيـــرةٌ ولقد تكـون لنـا أميـــرهْ
شبـتْ أمـــام لداتـــها بيضاءُ سابـغـةَ الغديـره[2]
الغديـره[2]

وفي هذا النوع نلاحظ أيضا استخدام الرمز والايحاء وقد كان ذلك نتيجة اتصاله بالسياسة ومما يدلنا علي ذلك قوله :

بشَـرَ الظبي والغرابُ بسُعْـدَى مرحبا بالذي يقول الغـرابُ
حبـذا الريم والوشاحان والقصـ ـر الـذي لا تناله الأسبابُ
رجـل أنت همـه حيـن يمسى خامرته من أجلك الأوصاب
لا أشَـم الريحـان إلا بعينـي كرما إنما تشم الكـلاب [3]
[3]

فهو في البيت الأخير يعرَّض بعبد الملك بن مروان لأنه كان متغير الفم تخرج منه رائحة كريهة تؤذى من يدنو منه فكان في يده دائما ريحان أو تفاحة أو طيب يشمه .

٢- المديـح :

انغمس شاعرنا في السياسة انغماسا واتصل برجالاتها كثيرا مثل عبد الله بن جعفر القرشي وطلحة بن عبيد الله الخزاعي ومصعب بن الزبير

---

(١) الديوان ، صـ ١، ٢.
(٢) الديوان / صـ ٤٣.
(٣) الديوان ، صـ ٨٤ ، ٨٥.

ومثل الأمويين في الشام وعبد العزيز بن مروان بمصر وكان لا يهدف من وراء ذلك إلا العطاء والمال والهبة والنوال وخير شاهد علي ذلك همزيته التي قالها في مصعب وهي أطول ما في ديوانه.

وهو في مدائحه يصور ممدوحيه بالكرم والشجاعة والهمة والبسالة والعطاء والسخاء والتواضع والعدل والرحمة والتقوى والحكمة والفصاحة والنسب الكريم والأرومة الأصيلة . يقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الـ ـله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت ولابه كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أفـ ـلح من كان همه الاتقاء[1]

ويتضح ذلك أيضا في مديحه عبد العزيز بن مروان حيث يقول :

أثن علي الطيب ابن ليلي إذا أثنيتَ في دينه وفي حسبه
من يصدق الوعد والقتال ويخـ شى الله في حلمه وفي غضبه
ومَنْ تَفيض الندى يداه ومَنْ ينتهبُ الحمدَ عند منتهبه[2]
منتهبه[2]

٣- الرثاء:

فجع ابن قيس الرقيات في بعض أصدقائه وأقاربه وممدوحيه ، ونكب فيهم عدة نكبات فهب ناهضا يرثيهم ويتحسر عليهم ويحزن متفجعا متألما

وقد كان في رثائه في غاية الصدق والوفاء وكان يتكئ علي إثارة الأحاسيس والمشاعر الحزينة وإهاجة العواطف المكلومة باختيار معان وألفاظ مملوءة باللوعة والحزن والحسرة والأنين والشجن .

ومن تلك المراثي التي تفيض حزنا وألما قوله في أقاربه الذين وقعوا صرعي معركة الحرة :

---

(١) الديوان / صـ ٩١ / ٩٢ .
(٢) الديوان / صـ ١٤..

ومصـــرع إخواني الصالحين بالنـــعف والأعينُ الساجمـــهْ
يتامى يبـــكون آبـــاءهم ولم يبـــق دهـــر لهم سائمـــةّ
وأرمـــلة يعتـــريـــها النحيب إذا نامتِ الأعيـــن الناعمـــــه
تبكي رجـــالَ بنـــــي عمها وإخوتـــها وحـــدها قائمـــه[1]
قائمـــه[1]

ومن مراثيه المفعمة بالحسرة واللوعة قوله الذي يرثي فيه مصعب بن الزبير:

فقـــلتَ لمن يخَبّـــَرني حزينـــا أتنعي مصعبـــا؟ غالتك غول
فـــإن يهـــلك فجـــدُّكـــم شـــقي وعيشـــــكم وأمنكم قليـــــل
أغـــرَّ تفـــرَّج الغمـــرات عنـــه كأن جبينـــه سيف صقيـــــل
إذا نزلت بـــه حرب ضـــروس يُهـــابُ الرزُّ منها والصليل[2]
والصليل[2]

وهنا تلاحظ امتزاج الرثاء عنده بالمدح ، هذا المدح الذي يتخذه وسيلة إلى بث الأحزان والأشجان والتنفيس عن الكربات والنكبات وصولا إلى توضيح عظم النكبة في المرثي.

---

[1] الديوان / صـــ١٠١/ ١٠٢.
[2] الديوان / صـــ ١٣٣/١٣٤ .